الفصل الثامن

الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة

إن مواجهة الإسلام للتحديات المادية المعاصرة لم تكنْ أول مواجهة له فى تاريخ الدعوة إليه ، وإنما الوحى الذى نزل على الرسول عليه السلام وهو بمكة على مدى ثلاثة عشر عاماً تركز أكثره على مقاومة المادية وتوضيح آثارها الضارة على البشرية ، وعلى الروابط الاجتماعية بين الأفراد والشعوب معًا .

والمادية إذ تنكر القيم العليا فى حياة الإنسان تنكر فى مقدمتها : الإيمان بالله واليوم الآخر :

(الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا ، أولئك فى ضلال بعيد) .

وإذ تؤمن بشىء فى حياة الأفراد والناس ، تؤمن بالمال فى جمعه وتكديسه ، وفى البخل والشح فى إنفاقه على الآخرين أصحاب الحاجة ، والعبث والترف فيه فى مصلحة الذات وحدها :

(كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لَمًّا ، وتحبون المال حبًّا جمًّا) .

وإذ تحدد طريقًا أو مسلكًا فى الحياة ، تحدد طريق الأنانية ، والنفعية والانتهازية والنفاق.

(وإذا قيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ قال الَّذينَ كَفَرُوا لِلَّذين آمنوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ، إن أنتُمْ إلاَّ فى ضَلال مُبينٍ) .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذين نَافَقُوا يَقُولُونَ لإخوانهم الَّذينَ كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَئِنْ أُخرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وإنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرنَّكُمْ واللهُ يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكاذِبُون لَئن أُخْرِجُوا لايخْرُجُون مَعَهُمْ وَلَئنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبارَ ، ثُمَّ لايُنْصَرُونَ) .

* * *

والإسلام إذ يواجه المادية صراحة يواجهها فى الكشف عن مساوئها وعن نتائجها على البشرية فى سلوك الأفراد ، وفى علاقات بعضهم ببعض ثم يواجهها مرة أخرى من خلال دعوته إلى الروابط الإنسانية فى بناء المجتمع وفى بقائه مستقرًا ، لاتهزه عواصف الإلحاد والسلوك اللا أخلاقى القائم على الحقد ، وإباحة سفك الدماء ، وانتهاك الحرمات الشخصية للأفراد فى أموالهم ، وأعراضهم ، وخصوصياتهم فى مساكنهم .

والإسلام يجدد فى بناء المجتمع بناءً سليمًا خمسة مبادئ :

المبدأ الأول : نظرته إلى المال ، وهى نظرة لاتلغى الملكية الفردية ، ولكن تُشرك فى منفعته مع المالك غيره من أصحاب الحاجة إلى المجتمع ، وإشراك صاحب الحاجة فى منفعة المال الخاص يقوم على أساس استخلاف الله للمالك فيما يملك :

(آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) .

والمالك إذن مرتبط فى إنماء المال ، وفى إنفاقه على السواء بما أوصى به صاحب الاستخلاف وهو الله تعالى ، وقد أوصى الله ، جل جلاله ، فى جانب التملك بحرمة السرقة ، والغصب ، وأكل أموال الناس بالباطل على العموم ، وأوصى فى جانب الإنماء بحرمة الربا ، ومنع الغرر فى العقود ، وأوصى فى جانب الإنفاق بالاعتدال بين التقتير والبسط ، ومنعه فى محرم يُرتكب ، فوظيفة المال وظيفة اجتماعية يتعلق بها حق كثيرين ، وإن قام على تملك فرد واحد ، ولذا كان حد السرقة هو قطع يد السارق ، إن تأكدت عدم حاجة السارق إلى المال ، لأن سرقته تنطوى على اعتداء على حقوق كثير من الأفراد : المالك والمنتفعين به .

ونظرة الإسلام إلى المال على أن ملكيته ملكية خاصة ، ومنفعته منفعة عامة ، تضمنها قول الله تعالى :

(والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق)

أى فيكم الغنى والفقير فى ملكية المال .. وفيكم صاحب اليسار الكبير والمحروم ، هذا قانون طبيعى .

(فما الذين فُضِّلُوا بِرَادِّى رزقهم على ماملكت أيمانهم ، فَهُمْ فيه سواء) .

فإن أعطى الذين يملكون المال مَنْ لا ينبغى أن يملكونه ، وهم : الأرقاء مثلا فيما مضى ، شيئًا من المال ، فإنهم لايعطونهم فى واقع الأمر مما يملكون هم ، وإنما يعطونهم حقهم فى المنفعة ، فهم فيها جميعًا – من يملك ومن لا يملك – أى فهم متساوون فى حق منفعة المال .

والإسلام يتفادى – بنظرته هذا إلى المال – طغيان رأس المال ، والحيلولة دون إنفاقه فى ترف ولهو ، كما قد تؤدى إلى ذلك حرية التملك للمال والحرية فى إنفاقه ، فى النظام الرأسمالى الحر ، كما يتفادى التواكل والتسيب ، والإهمال فى إنماء المال أو إنفاقه ، كما قد يؤدى إلى ذلك نقل الملكية الفردية ، إلى ملكية الدولة فى النظام الآخر المقابل للنظام الرأسمالى .

والإسلام بنظرته هذه إلى المال يحقق وظيفة المال الاجتماعية ، وهى توزيع منفعته على الكل ، من غير أن يضعف فى الإنسان الدافع إلى الملكية وسعيه إلى تحصيل المال .

المبدأ الثانى : العدل ، سواء بإشراك صاحب الحاجة فى منفعة المال المملوك لغيره ، أو بمنع الربا ، والغرر فى العقود ، وقبل هذا وذاك بتحقيق التوازن فى الفرد بين متطلبات غرائزه ، ومنطق الحكمة فيه وهو العقل ، فليس فى نظامه مايمنع الإنسان من الاستمتاع بزينة هذه الحياة الدنيا وطيباتها . . ، ليس فيه مايحول بين الرجل والمرأة من مباشرة العلاقة الزوجية :

(يابَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا

وَلا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسرِفِينَ . قُل مَن حَرَّم زِينَةَ الله التى أَخْرَجَ لِعبادِهِ وَالطَّيِّبات مِنَ الرِّزْق قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فى الحياة الدُّنيا خَالِصَةً يَوْم القيامة) .

والأمر الذى يمنعه فقط هو الإسراف فى المتعة ، لأنه يؤدى حتماً إلى الفساد فى العلاقات الإنسانية من جانب وإلى ضياع الفرد المستمتع من جانب آخر : فى صحته وفى سلوكه . . ، وفى تقديره للأمور .

والمبدأ الثالث : الإحسان ، وهو الإعطاء مما لدى الإنسان : من مال . . وعلم . . وجاه . . وقوة . . . وصحة - إلى صاحب الحاجة إلى المال ، أو إلى العلم ، أو إلى الجاه ، أو إلى القوة ، أو إلى الصحة ، فى غير مقابل ، هو أن يعطى الإنسان مما لديه من إنسانية ممثلة فى أى أمر من ذلك ، معيناً به غيره من أصحاب الحاجة إليه دون أن ينتظر منه جزاءً . إذ يقول الله تعالى :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان)

فيأمر بالعدل والإحسان معًا . فإنه يأمر بهما لأن العدل وحده فى المجتمع لا يحقق الترابط الإنسانى بين الأفراد فيه . فهو خطوة تمهيدية لمباشرة الإحسان بعده . . والإحسان هو الذى يشعر بالترابط الإنسانى بين القوى والضعيف ، والغنى والمحروم ، والعالم والجاهل ، والصحيح والمريض . فالفرد إذا لم يتعود العدل لا يأتى بالإحسان إطلاقًا .

والمبدأ الرابع : فى بناء المجتمع الإنسانى فى نظر الإسلام هو توفير الاعتبار البشرى لكل فرد فيه . أى مساواة جميع الأفراد فى الاعتبار البشرى والكرامة

الإنسانية . فلا الوظيفة . . ، ولا العمل . . ، ولا الحسب والشرف . . ، ولا العرق والعنصر ، ولاالغنى والثروة . . ، لاشيء فى ذلك . ولاغيره يفرق ، فى نظر الإسلام ، بين قيمة فرد وآخر . فالكل سواسية كأسنان المشط . ولهذا ينهى القرآن من أن يسخر إنسان من إنسان ، كما فى قول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب) .

ومن أجل ذلك لا يعرف الإسلام الطبقية . ولا التفرقة العنصرية . وإنما التفضيل عند الله بين فرد وآخر بعد المساواة فى القيمة الإنسانية يكون بالمستوى الإنسانى :

(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) .

والتقوى هى تجنب المساوئ ، والفساد ، والعبث ، والظلم ، والاعتداء ، مع العمل لخير الإنسانية .

والإسلام من أجل ذلك لا يعرف صراعًا طبقيًا ، ولا دمويًا . . بل إن اختلفت مجموعة من الأفراد فى المجتمع مع مجموعة أخرى فيه وباشرت القتال معها ، فإن الإسلام يدعو المسلمين جميعًا إلى أن يتدخلوا :

أولا : بقتال الفئة التى اعتدت حتى ينتهى اعتداؤها .

وثانيًا : بعد وقف القتال بإصلاح الأمر بين المجموعتين ، على أساس من العدل ، والأخوة معاً فيما بينهم .

(وإنْ طائِفَتانِ مِنَ المُؤمِنينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما ، فإنْ بَغَتْ إحْداهُما عَلَى الأُخْرَى فَقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ اللهِ ، فَإنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالعَدلِ ، وَأَقْسِطُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطين ، إنما المُؤمِنون إخوة فَأَصلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون) .

والإصلاح بالعدل الذى تطلبه الآية هنا هو الإصلاح القائم على رعاية الحقوق والواجبات ، فكل حق يؤخذ مقابله واجب يؤدى ، وأداء الواجب ينطوى على توصيل حق لصاحبه . فإذا كان رب العمل يجب عليه أن يؤدى أجر العمل للعامل ، فإن على العامل أن يؤدى حق رب العمل فيما كلف به من عمل ، سواء فى كمه أو فى نوعه .

والمبدأ الخامس : إن الإسلام يقدر العمل كما يقدر العبادة لله وحده . والسعى نحو العمل يجب أن يؤدى ، كالسعى إلى الصلاة يجب أن يؤدى كذلك ، ولايكتفى بأحدهما عن الآخر قال الله تعالى :

(يـأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا نودى لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إلَى ذِكرِ الله وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لكُمْ إنْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ ، فَإذا قُضِيَت الصَّلاةُ فانْتَشِرُوا فى الأَرضِ ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وَاذْكروا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكم تُفْلِحُونَ) .

* * *

وهكذا ، المجتمع الإسلامى هو مجتمع إنسانى فى روابطه :

(ا) هو مجتمع ينحى عنه طغيان المال والعبث به ، كما ينحى عن المال فى إنمائه وإنفاقه : التواكل ، والتسيب ، والإهمال .

(ب) هو مجتمع يعدل فى توزيع منفعة المال ، كما يبعد الخداع والغرر ، والربا فى معاملات الناس المالية بعضهم مع بعض .

(جـ) هو مجتمع يطلب الإحسان والعطاء فى غير مقابل ، ممن عنده فضل المال ، أو العلم ، أو الجاه أو القوة إلى من هم فى حاجة إلى ذلك .

(د) هو مجتمع يوفر الاعتبار البشرى لكل فرد فيه ويسوى بين الأفراد جميعًا فى القيمة الإنسانية لا يعرف العنصرية ، ولا الشعوبية ، ولا التفرقة على أساس اللون ، أو الحسب ، أو المال ، وتفضيل بعضهم على بعض عند الله بالتقوى ، وتجنب الاعتداء والظلم والطغيان والمنكر .

(هـ) هو مجتمع جعل العمل فى مرتبة العبادة . فكلاهما فى نظره واجب الأداء .

(و) هو مجتمع يقرن الحق بالواجب . فالواجب يؤدى والحق يؤخذ . وليس لديه مكان لحق يؤخذ دون أن يؤدى فى مقابله واجب ..

* * *

إن الحضارة المادية القائمة اليوم على تقدم العلم ، وتقدم الصناعة ، فى

حاجة ماسة إلى المستوى الإنسانى الذى يطلبه الإسلام . ويعمل من أجله فى علاقات الأفراد والشعوب ، حتى تكون هذه الحضارة لخير البشرية وازدهارها ، وإسعاد الأفراد ودفع مشقة الجوع ، والمرض ، والخوف من المستقبل . إن هذه الحضارة حتى الآن لتهديد البشرية والإنذار بفنائها .. إنها للإرهاب والردع ، كما يقولون .

والإسلام الذى يدعو إلى احترام الاعتبار البشرى ، ويبعد أى عامل آخر وراءه فى تقويم الأفراد والشعوب ، هو دين الإنسانية ودين السلام : لا يعرف الحقد ، ولا الصراع على أساس منه كما لا يعرف سفك الدماء فى إقناع الناس به ، قال الله عز وجل :

(قُلْ يأيُّها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وماأنا عليكم بوكيل) .